معركة بين دينين

دِين اليَهُود وَدِين النصَارَى

وقالت اليهود : عزيرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

ذلك قولُهُمْ بأفواههم ، يُضَاهِئُون قولَ الذين كفروا مِنْ قَبْل ، قاتَلَهم الله ، أنَّى يُؤفكون اتخذوا أحبارَهم ورُهْبَانَهم أَرْبَاباً مِنْ دون الله .

واتخذُوا المسيحَ ابنَ مريم ربًّا من دون الله .

وما أُمِرُوا إلا ليعبُدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه ، عمَّا يشركون .

* * *

و بنو إسرائيل ؛ بمبدئهم الرَّجْراج ، وأخلاقهم المتمايعة يخافون ، ولا يستحون فإذا مسَّهم الضُّر ، دعَوا الله مخلصين ، فإذا كشف الضُّرَّ عنهم ، إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون .

* * *

وهذا شأنهم مع موسى ، ومع هرون ، ومع زكريا ويحيى .

وهكذا كان شأنهم مع الأنبياء الذين أرسلوا فيهم : أرميا ، وشَعْيَا ومن بعدهم . كانوا يكفرون بهم ، ويهزءون برسالاتهم ، ولا يُلْقون بالا إلى تحذيرهم و إنذارهم ، ولا يخافون أن يأخذهم الله بكفرهم .

* * *

ويُسلِّط الله عليهم مُلوكَ بابل ، وسنحاريب ، وبُختنصَّر ، فيَدْهَمُونَهم ، ويُوقعون بهم العذاب ، والخراب والدمار ، فيخربون عليهم ديارهم ، ويدكُّون معابدهم ، ويدمِّرون بيت المقدس ، معبدَهم ومنْسكاهم .

* * *

فإذا ما ظهرت النَّصرانية ، وفيها تصديق لكتابهم ، وتِبْيَانٌ لما خَفِيَ عليهم وهُدًى ونورٌ ، وحكمةٌ وموعظة ، وتحليل لما حُرِّم عليهم ، نراهم يصدون عنها ، ويستكبرون ويقاومون المسيحيَّة بكل ما يستطيعون ، ويشنُّون عليها حرباً طاحنة مُبيدة .

* * *

فذُو نُواسٍ ، ملك اليمن ، يكاد يُصْعق حين يسمع خبر نصارى نَجْران ويتوهم أن الدنيا لا تتسع لدينه ودينهم ، ولا لحياته وحياتهم ، فيهبُّ عليهم كعواصف الموت ، ولا يكفيه أن يقتل أو يشنق ، وإنما هو التعذيب والتمثيل ، وما هو إلا أن يحفر الأُخدود فى الأرض ، ويُسعِّر فيها النار ، ليشوى هؤلاء النصارى ، ويصهر أجسادهم ، بما تجرَّءوا على دينه دين اليهودية ، وبما صَبَئوا واعتنقوا النصرانية .

وما كان يطفىء غُلَّته ، ويُبْرِدُ ثورته ، إلا أن يجمع جموعه وأعوانه ، ليُطِلُّوا على هؤلاء المساكين المسيحيين ، وهم فى الأخدود يحترقون .

قُتِل أصحاب الأخدود ، النارِ ذاتِ الوقود ، إذْ هم عليها قُعُود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شىء شهيد .

وشاءت إرادة الله ، أن يقتصَّ لهؤلاء النصارى من ذى نُواس ، فمكَّن لبعض هؤلاء النصارى ، أن يفرُّوا إلى النجاشىّ ملك الأحباش والنَّجاشى إذ ذاك ظهيرٌ للنصرانية .

فهبَّ لنجدتهم ، وانتقم لهم وأخذ بثأرهم وأخذ يكيل الضربات لذى نُواس ، حتى طواه تحت قدميه ، وأدخل اليمن بين يديه .

* * *

وفى طَيَّةٍ من طيَّات الزمن ، تستَعِرُ الحرب بين الأديان .

لا . بل بين محترفى الأديان .

فما كان بين الأديان يوماً خلاف ، والدين لله ، وما دامت الأديان لله ، وفى الله ، فلا يكون بينها خلاف .

* * *

وإنما جاءت يُصدِّق جديدها ما بين يديه من قديمها ، ويزيد عليه ، ويفصِّل فيه ، ويوسع فى تشريعه ، ويُتمُّ ما نقص ، وما يقتضيه تزايد العمران .

وعيسى مصدقٌ لموسى ، ومحمدٌ مصدقٌ لهما .

والإنجيل يكمِّلُ التوراة ، والقرآن متمِّمٌ للإنجيل والتوراة .

فتنازع البقاء لم يكن بين الأديان ، وإنما كان بين المتَّجرين بالأديان .

الكعبة

ودارت الأيام ، وأصبح أبرهة ملكاً على الحبشة ، وفيها دين النصرانية . وحارب أبرهةُ اليمن واستولى عليها .

وغرَّه أن الحبشة بنصرانيتها ، غَلَبَتْ اليمن بيهوديتها ، فتملَّكه الغرور ، واندفع يُوطِّد للنصرانية ، ويثبِّتُ مجْدها ويُعلى من شأنها .

* * *

وَرَمْزُ الأديان معابدُها ، ومن أجل ذلك يُفْرغ المتديِّنون قُصارى جُهدهم فى تشييدها وتعميرها ، وهندستها وتنظيمها ، وجَلْب العُبَّاد إليها .

وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر .

وبنى أبرهة كنيسته ، وعلَّى وشَيَّد ، وشرَّف ومجَّد ، ولكنَّ الناس عنه وعن كنيسته منصرفون .

والناس من أطراف الجزيرة العربيـة ، وما حول الجزيرة ، وفى اليمن والحبشة ، يولُّون وجوههم شَطْرَ الكعبة فى الحجاز ، يحجُّون ويتبركون .

والكعبة إذ ذاك مربض الأصْنام ، ومثْوى الأوثان ، ومعقِل الشِّرك والوثنية . وهذه يا قوم كنيسةُ النصرانية ، فما لكم لا تعرجون ، وعليها لا تقبلون !

* * *

وكان يغيظه أن أصحاب الكعبة يدلُّون ويفخرون ، بأنها البيت العتيق ،

ذو المجـد التليد ، وأنه أول بيتٍ وضع للناس ، بنـاه إبراهيم خليل الله ، وابنه إسماعيل رسول الله ، وربيبُ العرب .

وكان تنازع البقاء من جديد بين دينَيْن ومعبدَيْن .

وانتصب لحرب البقاء بينهما ميدانان ، فى اليمن ميدان ، وفى الحجاز ميدان ..

* * *

وتسْبقُ الحروبَ دائماً أيامُ التعبئـة ، وتُعبِّئُ المعسكرات كل قواها ، وتتربَّص الدوائر ، وتتحيَّن الفرص ، حتى يحين الحين ، وتنطلق الشرارة الأولى ، فتندلع النار ، وتثور الأرض ومَنْ عليها .

وكان أن تسلل رجلٌ أحمق عربىّ ، من قبيلة كنانَة ، إلى كنيسة أبرهـة ، وإلى أقدسِ مكانٍ فيهـا ، إلى المذْبح ، وهو يُساوى المحرابَ فى مساجد المسـلمين ، مَوْقفِ الإمام للمصلين فى الصلاة ، ومَجْلِس الشيخ فى تلاوة القرآن .

وفى المذْبحِ من الـكنيسة ، وفى غَفْـلَةِ الحراس والعبَّاد ، قعد هذا الأحمق ، ثم قام ، وترك من ورائه نجاسةً وقذارة .

عقلٌ صغير ، ونفسٌ أصغر .

وأصغرُ من الصَّغار ، ذلك الذى يخفُّ ويتزعْزع ويفور للصغيرة .

فما كانت الفَعْلة لتُثير مَلِـكاً متديِّناً ، تشرَّب قلبُه التسامح والتوقِّى من الشرور ، والحذرَ من غَدْر الانْبِعاث وراء الغضب .

ولو كان تذكَّر المسيحيَّة السمْحة ، التى توصِّى بأنَّ مَنْ ضربك على خدك الأيسر ، فأَدِرْ له خـدَّك الأيمن ، ما كان هاج ولا ماج ، ولا أقام الدنيا وأقعدها .

* * *

فأين أنت يا أبرهـة ، يا حاملَ لواء الدِّين ، والغاضبُ للمعبـد ، حين تنفخ فى الصُّور ، وتهيجُ القوم ، وتُجمِّع الجيوش ، وتسوق فى مقدمتها الفيلة الشداد الغلاظ ، يتزعمهم فيلك الأبيض ؟ .

جيشٌ جرار ، كان يمكن أن يُساق للخير والتعمير ، فتسوقُه لهدم بيت ؟ لهدم الـكعبة ، منافسة الـكنيسة ، والتى أغاظَكَ رَجُلها الـكِنانىُّ الأحْمَق من رجالها .

* * *

ووصل أبرهة بجيوشـه ، حتى وقف على باب مكة ، وأرسل فى طلب أصحاب البيت ، وخيَّرهم بين التسليم والتدمير .

فـكانوا أعقلَ منه ، وأرشدَ رأيا ، وتركوا له مكة وأخلَوْها ، وتفرقوا فى الشعاب وسفوح الجبال ، وأسلموا أمرهم لله .

وقال له شيخ سَدَنَة البيت وخُدَّامه الشيخ عبد المطلب :

يا أبرهة ، إنا لنْ نقدر عليك ، فاتَّجه بحربك إلى ربِّ البيت ، وربُّ البيت يحميه وكان ذلك دعاء عليه ، واستعانةً بالله على عدوِّ الله .

وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ! .

ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعلْ كيدَهم فى تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ، جماعاتٍ جماعاتٍ ، ترميهم بحجارةٍ من سِجِّيل ؟ فجعلهم كعصف مأكول ؟ .

ولعل المراد بالحجارة الصغيرة ، جراثيم الأمراض ، تفشَّت فيهم ، وفتكت بهم ، فأنهكت قواهم ، وهرَّأت جُلودهم ، وسوَّست عظامهم ، وأفنتهم ، فجعلتهم رِمَمًا وجِيَفًا .

فمثلهم كمثل الزَّرع ، إذا أكلته البهائم وهضَمَتْه فى كروشها ، وأخرجته رَوْثا قذراً ، تشمئزُّ منه النفوس ، وتتقزَّزُ منه العيون .

* * *

ولحكمةٍ سابقةٍ فى علم الله ، أن تُدْرك عناية الله البيتَ الحرام ، وتحميَ الكعبة من أصحاب الفيل ، فى تلك السنة المباركة ، التى ولد فيها النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، لتكون فيما بعد كعبةَ المسلمين ، وقبلَتهم فى صلاتهم ، ورمزَ دينهم ، ومزارَهم فى حَجِّهم ، ومركز دائرة اجتماعهم وتعارُفِهم ، ليشهدُوا منافع لهم ، ويذكروا اسمَ الله فى أيامٍ معلومات .

محمد

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ؟ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ؟ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ؟

* * *

عوّضه الله فى يُتْمه خيراً مما فقده بفقْد أبيه ، فقد مَكّن له أن يعيش فى ظلال جده وعمه ، وحضانة أمه ، ثم استوى غلاماً فتِيًّا ، يتاجر ، وعرف الناس ، وكسَب ، وتزوج وخلَّف وأصبح يُؤْوِى اليتامى والمساكين .

وعوّضه عِلماً وتجربة وخُلُقاً ، وربّاه فأحسن تربيته ، ومنحه نُبوّة ورسالة وشريعة ، وختاماً للأنبياء والمرسَلين ، وجعله أفضلَ الخلْق أجمعين .

وعوّضه فى فقره ، فأغناه عن الناس ، وبارك له فى تجارته ، وأغناه بعزّة نفسه ، وحسْن سُمعته ، وثقةِ الناس فيه ، وشُمول دينه .

* * *

وحين كبر وبلغ السادسة من عمره ، أخذته أمه ، وسافرت به من مكة إلى المدينة ، لزيارة بنى النجار ، أخوال أبيه ، فهؤلاء قومٌ من رائحة أبيه الذى مات ولم يره ، وزورته البيت الذى مات فيه ، والقبر الذى دفن فيه . وأقامت فى ضيافتهم ما أقامت ، ولقيت من إكرامهم ما لقيت .

وهى راجعة إلى مكة مرضت فى الطريق ، فماتت ، ودفنوها فى نزلةٍ اسمُها الأبْواء .

فلما دفنوها ، وردَمُوا عليها بالتّراب ، وانصرف الناس ، لم يبقَ واقفاً

على هذا القبر ، فى الخلاء ، وفى لهيب الشمس ، وحريق الصحراء ، إلا صبىٌّ صغير ، سنُّه ست سنوات .

هو ولدها محمد ، وقف يبلِّل هذا القبر بدموعه ، ويرثى أمه التى كانت تعوِّضه عن أبيه ، فإذا هى بموتها ، تخلِّفُه من غير أمه وأبيه .

وتلفَّت حواليه ، فلم يجدْ إلا جاريته أم أيمن .

فمسح عينيه ، واسترجع نفسه ، واستجمع شجاعته ، وقال لها :

الآن يا أمَّ أيمن ، قد حُرِمْتُ الأبوين ، وتعرَّيت من الظِّلِّين ، وأنا بين البلدين ، فإلى أين أذهب يا أم أيمن ؟

فتحدرت حبَّات دموعها ، وشَرَقتْ بريقها ، وتَحَشْرَجَ صوتها ، وهى تقول : إلى أين يا محمد ؟ إلى أبيك عبد المطلب ، سيد قريش ، فى ظله وحِجْره تَعيش . وتَمْتَم الصبى ، وقال : أبى عبد المطلب ؟ أبى ؟ لا تقولى أبى ! فإن أبى قد مات ، واليوم ، مرةً ثانيةً مات .

قولى يا أم أيمن : جدى ، والجدُّ أبٌ أعْلى ، وبينى وبينه ميدان يسْرح فيه أعمامى ، وأبناء أعمامى ، وما أنا إلا واحدٌ من هؤلاء وهؤلاء !

واستظلَّ فى كنَفِ جده عبد المطلب سنتين .

* * *

فلما مات عبد المطلب ، وقف محمدٌ على قبره مع الواقفين .

فلما انصرفوا ، لم يبقَ إلا الغلامُ اليتيم ، يبكيه ويرثيه ، ويقطُر حبات دموعه عليه ، ويقول :

لقد كنتَ أبى بعدَ أبى ، وكنت مُفَرِّج كربى ، وماسحَ رأسى ، ودافعَ بأسى وباعثَ أُنْسى ، أفيُجدى بعدَك التأسِّى !

والْتفتَ إلى أم أيمن من ورائه ، وسألها :

وإلى أين يا أمَّ أيمن ؟

وكفكفتْ أمُّ أيمن من دموعِها ، ومسَّتْ كَتِفَه بيدها ، وقالت :

إلى أين ؟ إلى أبيك أبى طالبٍ يا محمد ؟

وتَمْتَمَ الغلام ، ثم قال :

أبى ؟ أبى أبو طالب ؟ يا أمَّ أيمن . لقد مات الآباء ! واليومَ مات أبو الآباء ! قولى : عمِّى أبو طالب . وعمِّى أبو طالبٍ ، سيِّدُ الرجال ، وكريم الخصال ، وعليه هيْبَةٌ وجلال ، ولكنَّه يا أم أيمن : قليلُ المال وكثيرُ العيال ، أفَتُرِيدينَ يا أمّ أيمن ، أن أزيده حِمْلاً على أحمال ! ! وما أَرْضَى أنْ أعيشَ عِبْئاً على الرجال !

* * *

وبدأ محمدٌ يحمل نفسه ، ويعمل لعيشه ، ويرعى غنم الناس ، ليأخذ آخِرِ النهار أَجْرَه ويرْنُو إلى التجارة بعينه ، ويتعلق بأبى طالب فى سَفْرةٍ من سفراته إلى الشام ، فيتعرَّف الأسواق ، ويتمرَّس بالاتِّجار ، ويسير كَتِفاً بكَتِفٍ مع الناس .

* * *

وعلى قمة صخرة هناك بالشام ، يقيم الراهب بحيرى ، يطل على الغادين

والرائحين . يتعبَّد ويقرأ فى كتب الأولين ، ويفتح إنجيل برنابا ، فيتلو ما قال عيسى ، ومُبشّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمُه أحمد ، إذا سار ظَلَّلته سُحُب السماء .

ويرى بحيرى ، وهو يطل من صومعته ، قافلةً آتيةً من بلاد العرب ، تتبعها غمامة فى السماء ، وما كان مألوفاً فى القوافل ، أن تكرِّمها السماء .

فدعا هؤلاء القوم إلى صومعته ، وما كان من عادته أن يدعوَ الناس ، وتفرَّس فيهم ، حتى جلس إلى الشاب محمد يسأله ، ويقابل بين ما يرى فيه من ملامحَ وشواهد ، وبين ما قرأ من أوصافٍ وعلاماتٍ فى الكتاب .

ثم مال على عمه أبى طالب ، وهمس فى أذنه : يا أبا طالب ، خذْ ابنَ أخيك ، واضمُمْه إليك ، واحْذَرْ عليه ، وإنِّى لأرجو أن يكون ذا شأنٍ عظيم .

* * *

وتسامع الناس بأمانته ، وبالبركة التى تحلُّ فى تجارته ، وتمنَّى كثيرٌ من ذى التجارات ، أن يكون محمدٌ أمينَه وسفيره .

ودعتْه خديجة بنت خُوَيْلد ، الغنية الجميلة الجليلة ، ليتاجر فى مالها ، وأرسلت معه فى خدمته غلامها ، فربح لها ، وربح منها احترامَها وإعجابَها ، فعرضتْ عليه نفسَها ، وتزوَّجها ، ولوْ أنه كان أصغر سِناً منها ، فكانت الزوجة والحبيبة والرفيقة ، والسند فى الشدة ، والمفرِّجة للكربة ، والمصدِّقة يوم كذَّب الناس .

وكانت أولَ سيدةٍ تدخل الجنة ، وكانت أمَّ أولاده ، وما كان له من أخرى غير إبراهيم ، وكانت أعزَّ نسائِه عليه ، وحزِن لموتها حتى بدا حُزْنُه وهُزاله !

* * *

دخل الكعبة يوماً على القوم ، وقد تواعدوا على الحرب ، وغمسوا أيديَهم فى الدم ، فقال عَلاَمَ يا قوم ؟ فقالوا : من أجل هذا الحجر الأسود فهو من تراث نبى الله إبراهيم ، من استأثر برفعه إلى مكانه ، كان شرفُه فوقَ القبائل أجمعين .

فبسط محمدٌ رداءه ، ووضع الحجر فيه ، فأمسكوا بأطراف الرداء ، ورفعوه ، ، وكلُّهم اشتركوا فيه ، وأخذه بيده فبناه فى موضعه ، وما استأثر به أحد ، ولا تخلَّف أحد ، وعادت السيوف إلى الأغماد ، وانْزاح شَبَحُ الحرب ، وشعَّ السَّلام والأمان !

* * *

وعاش عزيزَ النفس ، وادِعَ الخُلُق ، طيب السُّمعة ، نموذج المثال ، حتى بلغ الأربعين من عمره ، فاكتمل وعْيُه ، ونضج رأيُه ، واستوى خلقُه وأدبُه ، وتسامَى عن كل ما يعيب الرجال ، فقد صنعه الله على عينه ، وأعدَّه لرسالته .

* * *

والرسالة ، مُهِمَّة خطيرة ، مهمة تغْيير دين بدين ، وخلْق عقيدةٍ تمحو عقيدة . والدِّين لصيقٌ بالروح ، وميراث الآباء ، وتركة الأبناء ، ومزاجٌ فى الدم ، وتقديسٌ للأصنام والأوثان ، فهى الآلهة ، وهى المعبودة المرجوَّة .

وكل كلامٍ يامحمدُ مقبول ، إلا أنْ تجترئ على الدِّين ، أو تسفه الأحلام ، أو تعيب على الآلهة ، فدون ذلك الخُصومة واللَّدَد ، والقطيعة والحرب .

يا محمد ، إن كنت تريد غنى أغْنيناك ، أو سيادةً سوَّدناك فأمَّا الدينُ ، فلا .

* * *

واشتجر الدينان ، وبَرَزَتْ بينهما نظريةُ تنازُع البقاء ، وبقاء الأصلح . وصحَّتْ النظرية وصدَقَتْ ، وتنازَعَ الدينان ، وثبتَ الحق ، وزَهَق الباطل وصحَّ خَبَرُ النبي عليه الصلاة والسلام : لا يجتمعُ فى الجزيرة دينان .

* * *

وكان أولَ من أسلم ، وأولَ من لقى الخبر ، خديجه زوجته .

وسألت فى ذلك قريبَها ، ورقةَ بنَ نَوْفل ، وعنده علمٌ من الكتاب فقرَّر صِدقه ، وتمنَّى أن يطول به العمر ، حتى يشهد بَعْثه .

وتنبَّأ له بما سيلقاه من شدةٍ وعَنَتٍ فى دعوته ، وأنَّ قومه سَيُخْرِجونه من بلده ، واستعظم ذلك النبي ، وقال : أو مُخْرِجِيَّ هُمْ ! ؟

* * *

وأسلم صديقه أبو بكر ، وابنُ عمه عليُّ بن أبى طالب ، وزيدُ بن حارثة ، أبو أسامه . وكانوا قِلَّة ، وكانت الدعوة سِرِّية .

وهكذا شأن الدَّعوات ، تبدأ سرِّيةً ، فتُعْرَضُ الفِكرة وتُمحَّص ، وتُرَبَّى فى الندوة ، وتنمو فى حِجْر الأقناع ، حتى إذا ما أصبحت عقيدةً ، ورسخت فى الأذهان ، وتمكَّنتْ من القلوب ، تملَّكتْ نواصِيَ المعتقدين .

* * *

والنفوسُ أقوى مِنَ الأجساد ، فلا الجسدُ يَثنى النَّفسَ عن الاعتقاد ، ولا هو يستطيع أنْ يسوقَها إلى غير ما اعتقدت .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ فى مُرادها الأجسام

فلا يُؤثِّر تعذيبُ الجسمِ وأذَاه فى مَجْرى النفس ، ولا يَفُكُّ ما عقدتْ من عزم .

* * *

ذلك الذى أثر فى عمر بن الخطاب يوم أسلم ، ويوم جَهَرَ بإسلامه .

فقد كان أعنفَ الغاضبين على محمدٍ وأصحابه ، ومِنْ خشيته ، كان المسلمون يتوارَوْن فى ندوتهم السرية ، يعقدونها فى دار الأرقم ، ويُوصدون عليهم الباب مخافة أن يقتحم عليهم مُقْتحِم .

وهمس هامس فى أذن عمر : أنَّ أختـك صَبَأَتْ ، واعتنقت الدين الجديد ، فغضب وثار ، ودق بابها ، وخَدَش وجهها ، وأسال دمها ، وضرب زوجها ، واختفى خبَّابُ مُقْرِئُها ، وهمَّ أن يأخذ الصحيفة من يدها .

ولـكنها صرخت فى وجهه ، وقالت : هـذا كلام الله ، لا يمسُّه إلا المطهَّرون . فادخلْ إنْ شئتَ ياعمر وتطهَّر ، وإذ ذاك أُسمعك ما كنا نقرأ .

أليس ذلك من توفيق الله ، أن تَشُنَّ المرأةُ على عمر ، حربَ أعصابٍ ، فَفَلَّتْ من حِدَّته ، وأطفأت من غضبه ، ولَيَّنت جماحَه ، بالدم السائل من وجهها ، وبالصرخة فى وجهه . والضَّن عليه أن يلمس الصحيفة قبل أن يتطهر ، وبالتطهر بالماء ، وللماء تبريد !

ويا تُرى ماذا حدثته نفسه فى كل ذلك ، لقد أنزل الله السكينة على قلبه وروحه حين أمسك الصحيفة وقرأ فى سورة طه : إنى أنا الله ! لا إله إلَّا أنا ، فاعْبُدْنى ، وأقم الصلاة لذكرى ، إنَّ الساعة آتيةٌ ، أكاد أخفيها لتجزَى كلُّ نفسٍ بما تسعى !

ناقش عمرُ الرأى ، ومحَّصه ، واعتقده ، فتملكته العقيدة ، فسخَّرتْ جسده ، فاندفع إلى دار الأرقم ، ودَخَلَ وأسلم .

* * *

وفعَلَتْ العقيدةُ فِعْلها فى أبى بكر ، فأنفق كلَّ ماله ، وما خاف الفقر على عياله ، وفعلت العقيدة فى عثمان ، فهانت عليه كل تجارته وثروته .

وفى علىٍّ بن أبى طالب ، فوضع نفسه عرضةً للقتْل ليلة الهجرة ، فكان أول فدائى فى الإسلام وفعلت العقيدة فِعلها فى بلالٍ ، فأشعلتْ قلبه ، وأطلقتْ لسانه يقول : أحدٌ أحد .

* * *

وفعلت العقيدة فعلها فى النَّبى ، فما ألْقى بالاً لوعيدٍ ولا تهديد ، ولا نظر إلى إغراء ، ولا غَرَّه يومًا ثناء .

وعن العقيدة صدرت كلُّ أقواله المتحدِّية ، يوم قال : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى ، لم أترك هـذا الأمر ، حتى يُظهرهُ الله ، أو أهلِكَ دونه .

* * *

وبالعقيدة جابَهَ دولة الشرك بأتْباعه الضِّعاف النِّحاف من المؤمنين . وبها تسامى عن أن يأبَه لامرأةِ أبى لهبٍ ، تُلْقى فى طريقه الشَّوك والأذى .

وترفع عن الوَقح عُقْبة بن أبى مِعْيط ، يوم أمسك بخناقه حتى كاد يقتله .

وما استفزَّه الغضب يوم ألقَوْا عليه كَرِش الذبيحة القذِر وهو ساجد فى الصلاة .

* * *

وبِحَماسِ العقيدة ، خرج هو وأبو بكر بالليل ، من وجه المتآمرين ، فارِّينْ بدينهما إلى المدينة ، لا يُباليان بالفُرسان المحيطين بالباب ، ولا المتابعين فى الطريق ، ولا بالكفار جميعاً ، وهم منتشرون فى الطرقات يطلبون دمه .

* * *

ذلك فعل العقيدة ، وذلك أثرها .

والفرق بين إنسان وإنسان وجرىء وجبان ، وصالحٍ وشيطان ، وكفرٍ وإيمان أنَّ هؤلاء اعتقدوا وأولئك لم يعتقدوا . فكان لهؤلاء مَبْدأ ، وبقى الآخرون مخلخلين مذبذبين .

* * *

وبالثقة الواثقة ، والاعتقاد الراسخ ، لم يتورَّع محمدٌ ، أن يُصْبِح ، فَيحْكى للناس ، أنه رحل إلى الشام ، ولَقِىَ الأنبياء فى المسجد الأقصى ، وصلَّى بهم إماماً لهم ، وأنه عاد إلى مكة فى نفسِ الليلة !

* * *

وما من شك ، فى أن هذه الرحلة ، وهذا الإسراء بالليل ، والعودة فى نفس الليلة ، كان ذلك مبعثَ قولٍ وإنكار ، وشكٍ وتفكه وتندُّر من الجاحدين المنكرين .

فرحلةٌ طولها شهر ، والرجعة منها فى شهر ، تتمُّ فى ليلة وبعض ليلة !

وعجبُها أن تكون بروحه وجسده ، وقد تحدَّوْه وسألوه عن معالم الطريق ، وعن الغادين والرائحين ، وأين تُجَّارُهم وتجاراتهم فى الطريق ، ومن الراكبُ ومن الحادى ؟

فأجاب ، ووصف ، وتحدَّى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وآمن المعتقدون ، وأنكر المكابرون .

* * *

حتى لقد اختلف فيها المسلمون ، فقد قال الأكثرون ، إنها رحلةٌ جسدية ، بروحه وجسمه ، وقال آخرون : كانت بالروح ، والروح ترى وتصِفُ ، سواء أكانت فى جسمها أم تجرَّدتْ منه .

وقال ناس : إنها كانت بالرؤيا ، ورؤيا الأنبياء ، إملاء من الواقع والحقيقة .

وقالت عائشة : إنَّ الإسراء كان من بيتى ، وقالت ضُرَّتها أمُّ هانى : إنَّ الإسراء كان من بيتى ، ولم تفقِدِ إحداهما جسد رسول الله ليلة الإسراء .

* * *

وجزى الله العلم خيرا عنا وعن رسول الله ، فقد كشف العلم عن الأثير فى الجو ، وعن مَوْجات الصوت ، وسمعنا المتحدث فى أقصى الأرض بجهاز الاستقبال ورأينا الخطباء من أمريكا بجهاز التلفزيون .

* * *

ولعل القوم الذين كذبوا محمداً ، لو كان انكشف لهم من سرِّ الكون بقدر ما انكشف لنا ، ما كانوا كذَّبوه ، ولا كابروه ، ولعدلوا عن جحودهم الإسراء والمعراج .

* * *

وعاش محمد دهراً ، سعيداً بزوجته خديجة ، فلما ماتت حزن عليها أعمق الحزن ولو كانت زوجةً وزوجاتٍ غيرها ، ما ذهب حزنه عليها .

وما الحب إلا للحبيب الأول .

حتى إنه لما استأنف الحياة الزوجية بعدها ، استأنفها بفتاة صغيرة غريرة ، فى سن الحادية عشرة أو تزيد ، عائشة بنت صديقه أبى بكر . وتزوج حَفْصَة بنت صاحبه عمر ، وتزوج أم هانىء بنت عمه أبى طالب . وتزوج جويرية بنت الحارث ليؤلف قبيلة بنى المصطلق ، وتزوج زينب بنت جحش ، وهند ، وصفية ، وميمونة .

ولكل واحدة من هؤلاء فى زواجها بالنبى قصة ، وما أَنْسَتْه واحدةٌ منهن خديجة .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، تَغَارُ على النبى أشدَّ الغَيْرَة ، حتى من ذكر خديجة ، التى لم ترها ، وكانت تقول فيها ، كلما سَمِعتْ النبى يمجد ذكرها : « ما كانت إلا عجوزاً حمراء الشدقين » .

وكان النبى يقول فيها : مالها : صدَّقتنى يوم كذَّب الناس ، وواستنى يوم خَذَل الناس ، وتاجرْت بمالها ، وأنا أفقر الناس .

* * *

وكانت عائشة بنت أبى بكر ، تَغَارُ من كل امرأة ، فغارت من جُوَيْرية بنت الحارث . وجُوَيْرية بنت الحارث ، والحارث سيد بنى المصطلق ، وقبائل بنى المصطلق كثير عددهم ، أشداء فى عنادهم وحربهم ، حاربوا النبى ، وأدال الله له النصر عليهم فغلبهم ووقع ناس كثيرون منهم أسارى فى يد المسلمين .

وكانت جَوَيرية إحدى الأسيرات .

ووزَّع النبى الأُسَارى والأسيرات على المحاربين والفرسان من المسلمين بالقرعة ، فأصابت قرعة جَوَيرية بنت الحارث ثابت بن قيس بن الشماس .

فلما كانت منه وجهاً لوجه ، تأبَّتْ عليه ، وكاتبته على مبلغ من المال ، ليُعْتقها به ولا تتزوجه . فرضى ، وانتظر حتى تعود إليه بالمال .

فإلى من تذهب وتستعين على التَّحرُّر بالمال .

ولم تر أمامها إلا أن تطرق باب النبى ، صلى الله عليه وسلم .

فطرقت الباب ، ففتحت عائشة ، فوجِمت لمرآها ، لمرأى فتاة جميلة مليحة قالت عائشة تروى حكايتها : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى ، حتى كرهْتُها ، وعَرَفتُ أن رسول الله ، سيرى منها ما رأيت .

* * *

ودخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جُوَيْرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن الشماس ، فكاتبته وجئتك أستعينك على كتابتى !

قال : فهل لك فى خير من ذلك ؟

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله .

قال : قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس ، أن بنى المصطلق ، صاروا أصهاراً لرسول الله .

فأعتق كلُّ مسلم أسيرهُ أو أسيرته ، فأعتق الله أسرى بنى المصطلق .

وما إن بلغ الخبر ، حتى أتت قبائل بنى المصطلق إلى النبى مسلمين .

* * *

بل لقد اشتدت غيرتها على رسول الله ، يوم قال علىٌّ بن أبى طالب يا رسول الله ، لا تحزن ، ففى النساء غيرها كثير .

وطوت هذه الكلمة لعلىٍّ بن أبى طالب ، بين طيَّاتِ قلبها أربعين سنة ، ثم خرجتْ لحربه فى موقعة الجمل .

* * *

كان ذلك فى ليلة الإفك ، يوم تقوَّل الناس عليها مؤْتفكين .

كان ذلك يوم أنْ خرج النبى لغزوةٍ من الغزواتِ ، وكانت عائشةُ معه فى الغزو ، فلما غزوا ورجعوا ، وطال على القوم السفر ، وانتصف الليل ، أَذِنَ النبى للجيش أن يحطوا رحالهم ، ليستروِحُوا ويستجموا ويستريحوا .

وكانت عائشة فى هوْدَجِها ، فأنزل الموكلون بها الهوْدج وأبْعدوا فراحت هى إلى بعيد ، تقضى حاجة ، وهى جالسةٌ هناك ، أخذت تعبث بعِقْدها فانفرط ، وانتثرت حبَّاتُه ، فانشغلتْ فى جمعها ، وقضت مدةً طويلة .

وكان النبى قد أَذِنَ بالرحيل ، فرفع الحرّاسُ هوْدَجها على الجمل وهم يظنون أنها فيه ، فهى صغيرة ، خفيفة الشحم واللحم ، ولا يُحَسُّ وزنها .

وسار الجيش ، وخلّفوها ، فلما عادتْ ، لم تجدْ إلا نفسها ، فقَبَعَتْ ، وطوَتْ نفسَها على نفسِها ، والتفّت بردائها ، تنتظر قضاء الله فيها .

وكان يحرس مؤخّرة الجيش ، الفارسُ صفوان — يسير بعد الجيش بقدر ساعة مَسير ، فلما وصل ، دار فى المكان ، لعلّ أحداً نسِيَ درعه أو سلاحه .

فلم يجد إلّا عائشة ، فسألها ، فلم ترد ، فنزل عن جواده ، فركبت ، وأمسك باللجام ، وسار بها حتى دخل المدينة ، فى ضحوة النهار .

وكان ذلك الحادث ، فرصةً ذهبية للكافرين وللمنافقين ، يتقوّلون فيها ، ويأفِكُون على عائشة زوجة النبى ، وبنت صاحبه أبى بكر ، وهى شابّة جميلة .

ما أخّرها ؟ ومع مَنْ وصَلَتْ ؟ وما صَفْوان ؟

وما مِنْ شك فى أن وقْع ذلك كان أليماً على نفس النبى ؟

واستشار اثنين من خاصته ، وأمَسِّ الناس به وأسْتَرهم عليه ، علىَّ ابنَ أبى طالب ، وأسامةَ بنَ زيد ، وكان أسامة منه بمنزله الولد .

فأما أسامة ، فمدح وأثنى وبرّأ ونفى الشك والشبهة .

وأما علىٌّ بن أبى طالب ، فقد تأثّر لمظهر النبى ، وكمَدِه وحُزنه وهُزاله . وأحبَّ أن يخفف الوطأة على ابن عمه رسول الله ، فقال :

يا رسول الله ، لا تحزنْ ففى النساء غيرها كثير .

واسْأَلْ الجارية تجبْك .

واستدعى رسول الله جاريتها بُرَيْرَة .

وقبل أنْ تشهد ، قام إليها علىٌّ فضربها ضرباً شديدا ، وهو يقول لها اصْدُقِي رسول الله .

قالت الجاريةُ بُريرة : والله ما أعلم إلا خيرا وما كنتُ أَعِيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجِنُ العجين ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الغنم ، فتأكله .

* * *

وحفِظَتْ عائشةُ ذلك لعلى ، وبعد أربعين سنة ، خرجت لحربه .

* * *

ونزل القرآن فى سورة النور ، مُعْلِناً براءتها ، وبراءَةَ صفوان معها .

إن الذين جاءوا بالإفْكِ عصبةٌ منكم ، لا تحسَبُوه شرًّا لكم ، بل هُو خير لكم .

* * *

إذَنْ ، فلم يكن النبى مِزواجاً ، إلا لرَبْطِ صديقٍ كأبى بكر وعمر ، وإلا لربط قبيلةٍ وتوريطها ، كقبائل بنى المصطلق ، أو لتعويضِ أرْمَلةٍ انقطعتْ واستشهد عائلُها وزوجُها فى الحرب .

أو كان ذلك لتَشريعٍ يدفع الحَرَجَ عن المسلمين ، يوم أن كانوا يتحرجون من التزوج بزوجات أدعيائهم .

* * *

وإلا ففيم قضى النبى ربيعَ العُمْر إلى خديجَةَ وَحْدَها ، لم يتّسعْ قلبُه لغَيْرها ؟

التحريم

الغَيرة ، وقانا الله نارها .

يروى فى الأساطير ، أن إبليس لمَّا أكلت نار الغيرة قلبه ، من آدم ، وسكناه فى الجنة ، وسجود الملائكة له ، وطيَّشت الغيرة عقله ، فقال لربه : أنا خير من آدم ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .

يروى أن إبليس ، أجهد نفسه فى تدبير حيلة ، ليخرج بها آدم من الجنة ، ودبر أن تكون الحيلة ، توقع آدم فى العصيان ، فتوقعه فى غضب ربه ، فيطرده من الجنة .

يروى أن إبليس ، اخترع المرآة ، وصنعها كبيرة ، على قدر نافذة واسعة ، وجاء حواء ، وما كانت تعرف الزجاج ، ولا المرآة ، ولا أنها تعكس الأشياء ، وقال يا حواء : أين آدم ؟ مالى أراه مشغولا عنك ؟ إنى أراه يغيب ، فيطول غيابه ! فقالت حواء : إنه يا إبليس هناك ، فى روضة نائية من رياض الجنة ، يتعبد ويتأمل ، ويطيل السجود تحت عرش الله ، غارق فى تأملاته وتسبيحاته ، فلاخوف عليه من غيابه .

فقهقه إبليس ساخراً من قولها ، هازئاً من غفلتها وبلاهتها ، واستغفال آدم إياها ، وأنه مشغول بحواء أخرى غيرها ، تزوجها ، ونعم فى جوارها ، وغرق فى السعادة بضرة متَّعته فى رحاب فسيحة فى أطراف الجنة .

فوجمت حوّاء واندعرت ، وانخلع قلبها ، وما يخلع قلب المرأة إلا الضرة .

وكذبت إبليس ، وغطت عينيها بيديها ، استبشاعاً للخبر ، وقالت : يا إبليس ما خلق الله فى الجنة ، ولا فى العالم حواء لآدم غيرى .

وقهقه إبليس ، وقال : يا حواء يابلهاء ، يا غافلة ، صدقينى ، فأنا آتٍ من هناك ، وقد رأيتهما بعينى ، يسرحان ويمرحان .

قالت حواء : أو أستطيع يا إبليس أن أراها بعينى ، فأصدقك !

فأدار إبليس المرآة أمام حواء ، فرأت وجهها وجسمها فى المرآة ، وصدقت أنها رأت بعينها ضرتها ، التى اختطفت آدم من أحضانها ، فبرد جسمها ، والتهب قلبها ، وطفرت الدموع من عينيها ، وفعلت الغيرة فعلها .

وهبت تجرى لتبحث عن آدم ، فاستوقفها إبليس ، ليهمس فى أذنها ، ويوسوس لها : أن آدم حين يراها من بعيد ، سيخفى حواء الجديدة . ويغرّك بأن يسجد ، ويطيل السجود ، حتى توقظيه ، فإذا سألتيه ، أنكر واستبعد . فإذا أصرَّ على إنكاره وجحوده ، فاستحلفيه ، وسيحلف ويحنث فى يمينه .

قالت حواء : يا إبليس ، أكثرتَ علىَّ ، وحيَّرتنى ، وما أستطيع أن أكلفه فوق يمين بالله إنه لمن الصادقين ! .

وقهقه إبليس قهقهة عالية صاخبة ، دوَّت فى أذنيها ، وقال يا حواء يا مسكينة ، إن آدم يهون عليه كل غال ، فى سبيل حواء الجديدة ، وأنا حزين عليك ، أفكر فى أمرك ، وسوء مصيرك إذا هجرك ، ومن ذا يكون لك إذا كان قد هجرك وغدر بك .

يا حواء : لا تستحلفيه ! ولكن ضيق الخناق عليه ، وخذيه تحت الشجرة المحرمة ، واقطفى منها ثمرة وقدِّميها إليه ، فإن امتنع عنها وأبى أن يأكل منها ، كانت حواء الجديدة عروساً جديدة ، فاتنة زوجك ، خاطفة آدم ، وأكون قد صدقتك ، فلا تكذبينى فيما أقدم لك من نصيحة .

وإن أكل من الشجرة ، كان آدم صادقاً ، وكنت كاذباً ، فلا أعود عليك بعدها بنصح ولا إرشاد .

* * *

وجرت حواء تبحثُ عن آدم فى جنبات الجنة ، فلما عثرت عليه ، ارتمت بين يديه ، شاكية باكية ، تلطم خدها ، وتندب حظها وتتهمه بالغدر والخيانة وتنذره بالوبال والنكال ، وتذكره أنه لها وحدها فكيف ، يشرك معها غيرها ؟ ويتزوج ضرة عليها ؟ .

فنفى آدم خبرها ، وعجب أن يرد هذا الخاطر على بالها ، وذكرها أن حواء واحدة فى الجنة ، وأنه لا نظير لها ، ولا مزاحم فى حبها .

وبكت ، ودمعت ، وأرسلت الزفرات والآهات ، وأطالت النحيب والعويل ، وآدم يطيب خاطرها ويربِّت عليها ، ويُذهب شَبحَ الضرة عنها ، ويحلف لها ، وينقطع عن العبادة ، ويجلس جنبها .

ولكن نار الغيرة مستعرة ، فقالت : يا آدم ، دعْ أيْمانك وحِلفانك ، يا آدم ، تعال تحت الشجرة المحرمة ، فهناك تظهر الحقيقة ! .

يا آدم هنا ، فى ظلالها ، وتحت ثمارها ، لا تستطيع أن تكذبنى .

هنا يا آدم : تستطيع أن تريحنى ، وتطفىء نار غيرتى ، وتنفى الشك الذى يقتلنى ، إذا أكلت من هذه الشجرة ! .

وانزعج آدم من هول ما طلبت ، وذكرها أن الله حرمها عليهما ، وأن غضب الله لا شك محيق بهما .

ولكن الغيرة أعمت عينيها ، وإبليس أجّج لهيبها ، وطمس على قلبها ، فصرخت وصاحت ، وردّ الصدى صراخها وصياحها ، حتى لكأن الجنة قد ملئت حواءات تصرخ وتصيح معها .

ورق قلب آدم ، وأدفأ الحنين جسمه ، وسوّخ عزمه ، وأسال عبرته ، وخشى على حواء أن تموت من غمها ، فانكبّ عليها يقبلها ، ويمسح بخدّه دموعها ، وهى تمد يدها فى فمه بثمرة من ثمار الشجرة ، فأكلها .

فبدت لهما سَوْءاتهما ، وانكشف سترهما ، وحل غضب الله عليهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ وأقل لكما : إن الشيطان لكما عدو مبين .

وفعلت الغيرة فعلها ، فطردهما الله من الجنة ! .

* * *

وفعلت الغيرة فعلها ، فألهبت قلوب إخوة يوسف ، ابن ضرة أمهم ، فرموه فى الجب .

وألهبت الغيرة قلب سارة زوج سيدنا إبراهيم على ضرتها هاجر ، فحتّمت على إبراهيم أن يأخذ هاجر وولدها إسماعيل ، ويرميهما فى الوادى الخراب .

وألهبت قلب أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر زوجة النبى ، على ضرتها السيدة خديجة ، حتى كانت تقول فيها : ما كانت إلا عجوزاً ، حمراء الشدقين .

وغارت السيدة عائشة ، من ضرتها جُويْرية الجميلة بنت بنى المصطلق ، حتى كانت تقول : والله لقد كرهتها منذ رأيتها ، وكرهت أن تدخل على رسول الله ، فيرى من جمالها ما رأيت ! .

وغارت عائشة على النبى ، من قولة علىّ بن أبى طالب : يا رسول الله ، لا تحزن ، ففى النساء غيرها كثير ، وخرجت بعد أربعين سنة ، لحرب على فى موقعة الجمل .

* * *

وسرت عدوى الغيرة ، على رسول الله ، بين نسائه ، حتى إنهن غِرن جميعا ، من مارية القبطية الجميلة ، التى لم يسكنها معهن فى المدينة ، وإنما أسكنها فى ضاحية العالية فى منزل أنيق ، تحيط به الزروع والكروم .

ووهب الله له منها الولد ، يوم لا ولد ، ويوم استبدت به اللهفة على الولد ، فأكثر من التردد عليها ، والمقام عندها ، ليشبع جوعة الخلف ، وليروى ظمأه ، ويشرب الرحيق من تقبيل ولده إبراهيم .

* * *

ومالك يا عائشة ، لا تستطيعين أن تخفى غيرتك يوم حمل النبى إليك ولده إبراهيم بين يديه ، فما باركت ، ولا بششت ، ولا أحسنت استقباله ! وأنت تعلمين أنه بلسم لجراح دامية فى قلب النبى ، وقد أشرف على الستين

بلا ولد ، لا من عائشة ، ولا من حفصة ، ولا من صفية ، ولا من ميمونة ، حتى ولدا خديجة ، قد ماتا من قبل إبراهيم ! .

* * *

لقد سئمت حفصة بنت عمر ، زوجة النبي ، المقام على الغيرة ، فاستأذنت فى أن تزور أباها عمر فى داره ، فأذن لها .

وصادف أن جاءت مارية القبطية من ضاحية العالية ، ودخلت على النبي ، فأنزلها فى منزل حفصة ، وهى غائبة .

وأحسَّت حفصة ، فأسرعت ورجعت ، ورأت ضرتها فى منزلها ، فغارت وحسبت أن ذلك إغاظة لها ، وامتهانٌ لكرامتها ، فغضبت ، ولسعتها الغيرة ، فبكت ، واحتجت ، ورفعت صوتها ، وقالت : أفى بيتى ، وعلى فراشى ، يا رسول الله !

والنبي لا يحب ذلك ، ويرى أن يسكت هذه الضرة الغيرانة ، ويرى أنها سوف لا تسكت إلا بمضارة ضرتها ، فأسرَّ فى أذن حفصة كلمة سرَّها إليها :

أيرضيك يا حفصة أننى حرَّمت على نفسى مارية أم إبراهيم !

ولكنْ يا حفصة ، إذا كان هذا فى مرضاتك ، فعليك أن تحتفظى بسرِّه ، لا تفشيه ولا تذيعيه .

ولِمَ كلّ هذا يا محمد ؟ تحرم على نفسك ما أحل الله لك ، تبتغى مرضاة أزواجك ؟

وما أنت بمرضيهن مهما جاملت ، وهن لم يجاملنك ، حتى لو طوحت بها فى الوادى السحيق كما طوح إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل !

وهن لم يحاملنك حتى فى موت إبراهيم !

* * *

أرأيت يا محمد ، أنك حين استرضيت حفصة بنت عمر ، بتحريم مريم أم ولدك ، على نفسك ، واشترطت عليها ألا تذيع ؛ أرأيت أنها نفذت عهدك وطوت فى قلبها سرك ؟

المرأة هى المرأة ، إلا من عصم الله ، وزوجاتك أمهات المؤمنين ، غيورات عليك ، ولا تطيق حفصة أن تطوى صدرها على نار غيرتها ، ولا بدَّ لها أن تفضفض عن نفسها ، وتتناجى بهمها إلى زميلتها عائشة بنت أبى بكر .

ولا سرَّ مودعٌ بين ثلاثة ، فقالت عائشة لصفية ، وقالت هذه لتلك ، وقالت تلك للأخرى .

* * *

والنبى ليس خالياً لمثل هذه المماحكات بين الضرائر .

فله من أمر المسلمين ، ومن الرسالة ، ومن شئون العبادة ، ومن تصريف الناس ، ما لا يبقى من وقته لهذه أو تلك .

فاغتم لذلك ، واعتزلهن فى خلوته ، وأقام مولاه رَبَاحاً أبا بلال على باب الخلوة ، لا يسمح لزائرة ولا زائر ، واعتكف شهراً كاملا ، حتى تحدث الناس ، وخمَّنوا ، وظنوا أن النبى مطلق زوجاته جميعاً .

* * *

وتلك أزمة ، ترج النبي ، وتطلق الألسنة الحداد عليه وعلى نسائه ، وتهز المجتمع الإسلامى ، وما يزال فى بدء حياته ، وطراوة شبابه .

* * *

ومَنْ لهذه الأزمة ، يدركها قبل أن تستحكم وتستفحل ويفوح ريحها ، ويعلو دخانها ؟ مَنْ لهـا غير عمر ؟

لقد استأذن على النبي ، فما أذن ، فرفع صوته ، فأُذن له ، ودخل عمر ، ورأى من حال النبي ما أبكاه ، فبكى .

وعمر بارع ، فما هذا بالموقف الذى ينفع فيه البكاء ، وإنما هو المواساة والتفاهم والإقناع .

وحاور النبي وداوره ، حتى أذهب عنه غمه ، وسرّى همه ، واستشفع فى النساء المخطئات .

وقال : يا رسول الله إنَّ نساءك ، إن كنَّ غيورات ، فإنَّ غيرتهن عليك . وليست غيرتهن إلا حباً فيك ، واحتفاظاً بك ، واستئثارا بشرف المثول بين يديك .

* * *

وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا ، فلما نبأت به ، وأظهره الله عليه ، عرَّف بعضه ، وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به ، قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنِيَ العليم الخبير ، إن تتوبا إلى الله ، فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه ، فإن الله ، هو مولاه ، وجبريل ، وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير .

عسى ربه ، إن طلقكن ، أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات ، وأبكارا .

وخرج النبي من اعتكافه ، وبارح خلوته ، وعاود نساءه ، وقد رجعن إليه واعتذرن من جرأتهن عليه .

وعرفن أن الغيرة نار ، وما يجدر بهن ، أن يزدْن النار لهيباً .

وقانا الله نارها !

التبنى

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم فى الدين ، ومواليكم .

* * *

جرت سُنَّة العرب ، على التَّبَنِّى ، واتخاذ أبناء الغير أبناء .

وكانوا يحلونهم محل الأبناء من الصلب والنسب ، فيخلعون عليهم من الحدب والكفالة ، ومن التوريث ، ومن الإقامة بين المحارم ، ويتوجونهم بأسمائهم وألقابهم ، وأمجاد قبائلهم وأسرهم ، حتى لكأنهم من أصلابهم .

* * *

وكان هؤلاء الأبناء الأدعياء ، سدًّا منيعاً فى وجه الأهل والأقرباء ، فى وجه الوالدين ، والأخوة والأخوات والأهل فى الميراث ، وفى حرمانهم من المودة والمحبة ، وكانوا سببا فى كثير من مشاكل الأسرة .

* * *

وكانوا بذور الكراهية ، بين الرجل الذى تبناهم وبين أهله ، وكانوا ينظرون إلى هذا الدعى ، وقلوبهم ضائقة به وعواطفهم جامدة عليه ، فهو مقتحم عليهم أسرتهم ، ودمه ليس من دمهم ، وإذا ورث اسمهم ، ومجد

أسرتهم ، فسرعان ما يتحلل منه ، ويتنكر له ، ويخلع النسب الذى أضفوه عليه .

وهو إذا حجب الورَّاث ، واستحوذ على المال ، كان هذا المال هيناً عليه فيبدده ويهلكه فى الكيد لهم .

وهو إذا أقام فى منزل الرجل الذى تبناه ، مع زوجته ، لم يجد من نفسه ولم تجد من نفسها عاطفة بنوة ولا أمومة .

* * *

وجرت سُنَّة العرب ، أن يكرموا هؤلاء الأدعياء ، فيحرموا على أنفسهم أن يتزوجوا زوجات هؤلاء المتبنَّيْن ، إذا طلقوهن ، أو ماتوا عنهن ، وكان هذا الحرج ، أظهر مظاهر التَّبنِّى والأدعاء .

وسبق فى علم الله ، أن يحرِّم التبنى والأدعاء ، لما فيه من تعكير صفاء الأنساب ، ولما فيه من خلق الكراهية من الأقرباء ، ولما فيه من تحدى لإرادة الله حين يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيما .

* * *

وهيأ الله ، جلت حكمته ، لهذا التحريم سبباً ، يهدم به هذا العرف ، ويقوض به أركان هذا التقليد .

وأن يكون معولُ الهدم ، والخارجُ على العرف ، والمستهدفُ للتجريح

والنقد ، هو محمّدًا نفسه . فهو أقدر على التجريح والنقد ، وهو أجلد على مجابهة الغمز واللمز .

* * *

كان ذلك يوم أن وهبت السيدة خديجة ، مولاها وعبدها ، زيد بن ثابت الذى اشترته بمالها ، لزوجها محمد ، ليكون عبده ومولاه .

والنبى ، محرر للعقول ، فكيف لا يعتق الجسوم ؟

فأعتق زيداً ، وتبنّاه ، وأكرمه ورعاه ، وأفرغ عليه عاطفة الأبوة الشاغرة وعرف الناس أنه ابن محمد ومتبنّاه .

وأراد النبى ، أن يتوج هذا العطف على مولاه زيد بن ثابت ، بأن يزوجه ، وأن يزوجه إحدى كرائم العرب ، وذات الأصل والحسب .

وكان أن اختار له ، زينب بنت جحش ، وهى بنت عمته ، وخطبها له .

واستعظمت زينب ، واستعظم أخوها عبد الله ، أن يتزوج زيد هذا ، فتاة عربية أصيلة حرة ، لم يجر فيها استعباد ولا رق كما جرى فيه ، مهما كان مولى النبى ، ومهما كان قد أعتقه .

ولكن القرآن نزل يحطم هذه العنجهية ، ويروّض هذه العصبية المترفّعة . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومَن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا بعيداً .

وتزوج زيد بن ثابت ، العبد المولى ، زينب الحرة الأصيلة الجميلة ، وعاشا

زمناً ، يتودد إليها ، فلا تود ، وتروض نفسها على زوجها ، مرضاة ، والتزاماً لاختيار النبي ، ويحس زيد منها كل آونة ، تكرُّهاً وتأبِّياً وتساميا .

ويسبق فى علم الله سبحانه ، أن هذا زواج ، له نتائجه وخطورته .

* * *

والنبى يدرك ، أن هذا زواج على تكرُّه وتأبٍّ ، وأنه لا بد صائر إلى الانفصال .

* * *

ولكنه لا يسبق الحوادث ، ولا يتعجلها ، ولا يود أن يفصل فيه ، من قبل أن يفصل الله فيه .

فإذا جاءه زيد متبرماً من كبرياء زينب ، واستعظامها عليه ، شاكياً منها مستأذناً فى طَلاقها ، استمهله النبي ، وطيب نفسه ، ووعظه وصبَّره .

ويدخل عليها النبي فينصحها ، ويسلس جموحها على زوجها ، ويروضها على الرضا بإرادة الله .

ويخرج فيقول لزوجها : أمسك عليك زوجك ، فهى كريمة وأصيلة ، واتق الله فيها ، وعالجْ فيها هذه الأنفة ، ولا تطلقْها ، فتكسر نفسها ، وتطلق ألسنة الناس فيها ، فالطلاق لجميعة النساء .

* * *

والنبي يقول ما يقول بلسانه ، ونفسُه مدركة نهاية هذا الزواج ، ويخفى هذا الإدراك ، ويستر ما يعلم ، حتى يُظهره الله .

والنبي يدرك ويعلم أن تطليقها سيحدث رجة فى المجتمع ، وخلخلة فى التقاليد .

والنبي يخشى أن يقرّ تطليق الزوجة ، إذا تأبّت على زوجها العتيق .

والنبي يخشى أن يطلق زيد زينب ، فقد تصبح زوجة للنبي ، من بعد زيد مولاه ، فيخرق العرف ، وينقض التقاليد ، إذا تزوج زوجة متبنا فيدركه الحرجُ ، ويدرك الناس .

والنبي من أجل هذا ، يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس ، والله أحق أن يخشاه .

وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا ، زوّجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا .

* * *

وما الإنسان ، إلا عقلٌ وعواطف ، فإذا غلب العقل على العاطفة ، كان ذلك خير ما يرجى من إنسان مهذب عاقل ، لا تغلبه عواطفه ، ولا تستهويه شهوته ، ولا تستبد به نزوته .

فإذا منح الله الأمان من العواطف لإنسان ، وضمن له السلامة من الزلل ، كان ذلك هو العصمة ، التى لا تمنح إلا للأنبياء .

* * *

ولـكن ليس معنى العصمة والأمان من الزلل ، وتغليب العقل ، ورجحان البصر على العواطف والوجدان ، أن عواطف المعصومين قد ماتت ، أو أن أحاسيسهم قد تبلدت ، أو أن وجداناتهم قد سقمت ، أو عيونهم قد انطرفت ، عن مشاهدة جلال الله فى جميل صنعته ، و إدراك الجمال البادى فى خلقه .

* * *

هم ناس ، لهم إحساس ، ولـكنهم معصومون ، يرون الجمال ، فيقع فى نفوسهم ، أو يقعون فيه ، فيتحركون له ، ولـكنهم فى نطاق العصمة محروسون .

* * *

و إذن فلا غرابة ، أن رسول الله ، حين دخل يحدثها فى شأن زوجها ، وقد تبدت له ، أن وقعت فى نفسه ، فسبَّح الله فى جلاله ، ومجده فى جمال خلقه ، وهمَّ خارجا من فوره ، وقال : سبحانك يا مقلب القلوب .

* * *

ورأت زينب ذلك منه ، وسمعت تسبيحه ، فأشفقت على النبى ، وذكرت ذلك لزيد بن ثابت .

فدخل فى نفســـه شىء منها ، واستشعر فى نفسه فرق ما بين منزلته وقدرها ، فطلقها .

* * *

وكان سفيرا فى تزويجها من النبى ، ليمتحن الله قوته فى إيمانه ، وسيطرته على نفسه وغيرته ، ورسوخه فى عقيدته ، وأن ذلك إنما كان تشريعاً للناس ، إلا شباعاً لرغبة ، ولا اتباعاً لهوى .

* * *

وتزوجها النبي ، وحطم ذلك التقليد العتيق ، المحرج للعرب ، الجالب للنفرة ، المقطع لأوصال القرابة .

لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم .

* * *

وما جعل أدعياءكم أبناءكم .

ادعوهم لآبائهم . هو أقسط عند الله .

فإن لم تعلموا آباءهم ، فإخوانكم فى الدين ، ومواليكم .

* * *

وكانت تلك منزلة شريفة ، هزت نفس زينب ، وازدهتها ، واستخفتها فرحاً بزواجها من رسول الله .

فكانت تباهى وتفاخر بها زوجات النبي الأخريات .

وكانت تقول لهن : أنا خير منكن ، فقد زوجكن آباؤكن وأولياؤكن وأما أنا ، فقد تولى الله تزويجى من رسول الله .

فأين منى أنتن !

المظاهرة

كذلك جرت سنة العرب فى الجاهلية على المظاهرة .

والمظاهرة أقسى وأعنف أنواع الطلاق .

والطلاق أبغض الحلال إلى الله .

فإذا غضب الرجل على الزوجة طلقها ، فإذا اشتد غضبه عليها ، وعنف فى غضبه ، حتى ما يعود إليها ، ظاهر منها ، فقال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى .

* * *

طلاقٌ لا رجعة فيه ، وفراق لا وصال بعده ، وأسرة تتفكك ، وأطفال تُشَرَّد ، فإذا بقوا مع الأب ضيعتهم زوجة أبيهم ، وإن راحوا مع الأم جوَّعهم زوج أمهم .

* * *

ومن أجل هذا ، حرَّم الإسلام المظاهرة ، لجنايتها على الأسرة والزوجة ، والأبناء .

وما جنى الأبناء ذنباً ، إلا ما جناه حمق الآباء .

وما جنت الزوجة ذنباً ، إلا ما جناه سَفَه الأزواج ، وسوء تصرفهم فى حق التطليق ، فيحرمون زوجاتهم على أنفسهم ، كتحريم أمهاتهم عليهم .

وفرقٌ كبير بين الزوجة والأم ، فالرجل من أمه ، وأمه له ، لا فِصال ولا انتقال . ولكن الزوجة غريبة لا يربطها به إلا عقدة الزواج ، فإذا

ظاهرها انفصمت العقدة ، وانحل الرباط ، وتقطعت حبال المودة ، وغادرت البيت ، وامتد لهيب الغضب إلى الأبناء فحرّقتهم نار الهجران .

* * *

ومن أجل هذا نزلت أربع آيات من القرآن ، تحرم المظاهرة من الزوجات ، وتندد بالمظاهر ، وتوبخه وتقرعه ، على فعله الخطير ، المفكك للجماعة ، المشرد للأطفال ، الموجب للجفوة والعداوة بين الأصهار .

* * *

ووصف القرآن علاجاً لهذا الداء ، ودواء يشفى منه ، ويؤدب الحمق من الأزواج ، والعلاج قاس ، والدواء مر ، ولكنه يؤدب الجاهلين البطرين بنعمة الزوجية ، ويعود بالخير على آخرين .

والداء الذى لا بد أن يتجرعه مَنْ يظاهر من زوجته حتى يخف ويعود صحيحاً معافى فى نفسه ودينه وأسرته وينعم ثانية فى رحاب زوجته ، ولمِّ شمل أولاده ، أن يعتق رقبة عبد من عبيده ، فيكسب العبد حريته ، ويكسب المجتمع الإسلامى نفساً تحررت ، وتُضم إلى مجموعة الأحرار ، وتنقصُ عدد العبيد المؤمنين .

وقد لا يتيسر هذا الدواء الآن ، دواء عتق الرقبة ، فقد مضى زمن الرق ، ولم يعد فى الإسلام عبودية ، إلا ما بقى فى بلاد الحجاز ، فما يزال هناك العبيد والإماء يباعون فى سوق النخاسة ويشترون .

وإن لم يستطع أن يشترى عبداً ويعتقه ، كان عليه أن يتجرع دواء

الصوم ، يصوم شهرين متواصلين ، فيكسب كفارة عن جريمة ، وتطهيراً لنفس جريئة على الشر ، ويكسب المجتمع رجلا تهذب بالصوم ، وتأدب بالحرمان ، وذاق حرارة الفسوق والعصيان .

فإن لم يستطع أن يصوم ، كان عليه أن يطعم ستين مسكيناً من المسلمين ، فيكسب المساكين طعاماً من أخ مسلم مخطئ ، فيطعمون ، ويتعظون ، فلا يقعون فيما وقع فيه من خطأ .

* * *

أسمعت كل هذا يا أوس بن الصامت ، يا من ظاهرت من زوجتك خولة بنت ثعلبة . فأزعجتها ، وهددت عليها بيتها ، فذهبتْ إلى رسول الله تبكى وتشكو ، وتلتمس عنده مخرجا ، ويقول النبى لها : ياخولة ، لقد حرمت عليه ، فلا يجمعكما سقف واحد .

وتقول خولة للنبى : يارسول الله ، كيف هذا ؟ وزوجى لم يذكر كلمة الطلاق ؟

فيقول لها النبى : ياخولة : المظاهرة شر أنواع الطلاق !

فتقول خولة : وأولادى وبيتى يارسول الله ؟

فيقول النبى لها : ياخولة ، لابدَّ من الفراق .

وتجادله ويجادلها ، وتلتمس حلا للعقدة ، وتفريجاً للأزمة ، وليس عند النبى من حلٍّ مشروع ، ولا قرآن منزل .

* * *

وخولة مكروبة محزونة ، زائغة البصر ، مرجوفة من الخراب والنشتيت .

* * *

فرفعت رأسها إلى السماء ، واتجهت إلى الله ، تسأله وتدعوه .

ويقول الله — ادعونى أستجب لكم .

واستجاب الله لها ، فنزل الوحى ، وأسمع النبى أربع آيات مفصلات :

قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير .

الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلَّا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور .

والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير .

فمن لم يجد ، فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا .

فمن لم يستطع ، فإطعام ستين مسكينا .

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله .

الابتهال والمباهلة

نصارى نجران ، ونجران إقليم باليمن ، مثل قبط مصر ، ومثل سائر الأقطار والأقاليم ، التى حول الجزيرة العربية .

أقطار مظلمة بظلام الشرك والكفر ، وأطبق عليها الرهبان والأحبار ، والقسس والأساقفة ، وضربوا عليهم نطاقا من حديد ، واستولوا على عقولهم ، واستنزفوا أموالهم ، وأقاموا بينهم وبين العقل ونور الإيمان سدوداً وحدوداً .

إنَّ كثيرا من الأحبار والرهبان ، ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

* * *

وكان لابد للنور الإلهى أن تمتد أشعته ، فتنير العقول ، وتبدد الأوهام ، وكان أن أرسل النبى كتبه إلى هذه الأقطار يدعوها إلى الله ، ويعرض عليهم الإسلام . ويرغبهم فيه .

وكان النبى طبيباً معالجاً ، والطبيب . يصف العلة ، ويقرر الدواء فإن شرح ، الله صدر المريض ، وتعاطى الدواء ، كتب الله له البرء والشفاء .

وإن أبى أن يتعاطى الدواء ، وركب رأسه ، واستحب أن يعيش عليلا ممروضا ، كان من حق الطبيب أن يخيِّره بين الرضا والخنوع للطب والتطبيب ، وبين أن تشتد عليه العلة ، فيهلك ويموت .

وكان من حق الطبيب ، إذا هو خشى على الأصحاء المخالطين والمجاورين لهذا العليل العنيد ، أن تتسرب إليهم عدواه ، وإذا هو خشى عليهم منه ، أن يتعمد الاختلاط بهم ، والاندساس فيهم ، وتحريضهم على أن يعودوا من صحتهم إلى مرضه ، وإذا رأى هذا المريض يثور فى الأصحاء ، ويعتدى عليهم ، ويهدد حياتهم ، كان من حق الطبيب أن يجبره على التداوى ، وأن يشهر عليه عصا التأديب ليعالج حمقه وسفاهته ، ويمرِّض فيه سوء رأيه ، ويطبِّب جهالته وغباوته .

* * *

إنما مثل محمد فى رسالته ، مثل الطبيب فى تطبيبه .

فقد بعث إلى الناس رسائل ، تفصح عن خطر الشرك والكفر ، وتوضح نور التوحيد والإيمان ، وتبشر بالرضا والهداية ، وتنذر بالعذاب والخسران .

فبعض الناس اهتدى وآمن ، وبعض الناس ركب رأس الشيطان ، وأمعن فى الكفران ، وحمل السلاح ونزل الميدان .

* * *

والنبى طبيب البشرية ، قيّم على هؤلاء الحمقى الخاسرين ، بتكليف من الله .

إنْ يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون .

فقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله .

وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم .

أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإن شهدوا ، حقنوا دماءهم ، وأنفسهم وأموالهم ، إلا بحق من حقوق الله .

* * *

ومن حق القيِّم ، أن يكتب ويرسل ويدعو هؤلاء إلى الله .

وبعث إلى المقوقس ، عظيم القبط بمصر ، يخيِّره بين ثلاث .

الإسلام وهو خير ، أو الجزية ، وهى مسالمة وخضوع وفترة تفكير لعلهم يسلمون ، أو الحرب ، وهى القسر ، وتعقيل الجاهلين ، وتأديب العاصين .

وآثر المقوقس ، أن يدفع الجزية ، ويقدم المال ، ويبعث بالهدايا ، وكانت هداياه عجيبة ، فرساً تركب ، وتقديم الفرس للراكب ، خضوع وتسليم ، وطبيباً يداوى ، وفى تقديم الطبيب ، رجاء للصحة والعافية وامتداد للأمل ، وفتاة مصرية قبطية جميلة ، وفى تقديمها ، تقديمٌ للخدمة ، وتسليم للعرض ، امتحانا فى الاحتفاظ به وصيانته ، وقد يكون سببا فى الارتباط به ومصاهرته .

والخيل العربية أصيلة ، وليس لها فى الدنيا نظير ، وعند العرب منها خير مما عند القبط بمصر ، وهم ركاب خيل من قبل أن يركب الناس .

والطبيب يعالج المرضى المعلولين ، ومحمد طبيب النفس والجسد ، ودستور دينه ، لا يدع الشعب يمرض ، وليس فى المسلمين مريض يعالج .

ونحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، فمن أين نمرض ؟

ويا طبيب الاسكندرية ، احمل سلامنا إلى أهلك ، واشكرهم على إهدائك ، فمرضاكم أولى بك ، ولعلك تعود إلينا ، ومعك أهلك ، مسلمين .

وأنت أيتها الفتاة القبطية ، عزيزة على قومك ، وأنت حبل من حبال ودادهم ، ووصلة تربطنا بهم ، وإعزازك إعزاز لهم ، واستمالة لميولهم ، والتصاهر بك ، تمهيد لطريقهم ، وتوريط لهم ، فأنت مقبولة لدينا ، كريمة علينا ، وبين يدينا وعينينا ، ولعل الله يسوق منك الخير والولد إلينا .

ونصارى نجران ، فى قبضة الرهبان والأساقفة ، والحبر يقبض على لجامهم بيده ، ويهمس ويوسوس ، ويقدر ويعبر ، والناس من حوله لا يرون إلا مايرى .

وقد رأى كتاب محمد ، وفيه التخيير بين الإسلام والجزية والقتال .

ورأى أن يرد على محمد ، بأن يرسل إليه وفداً يجادله ويحاوره ، ويفحمه ويغلبه ، فعنده المجادلون المحاورون .

وجاء وفد نصارى نجران ، يلبسون مسوح الرهبان ، ويتختمون بالذهب الرنان ، ويتوشحون بالصلبان ، ودخلوا على محمد ، وألقوا الهدايا بين يديه .

والناس من قديم يرون أن الهدايا ، تستميل القلوب ، وتهدئ الثائر ، وتشترى الذمم ، وتقلب الحق زوراً وبهتاناً ، وأن الهدايا لها فعلها فى النفوس فكم من حق غطت عليه الهدية فضاع ، وكم من باطل دهنته الهدية ، فلمع وسطع ، وأخفى بَرِيقُه الحقوق .

والهدايا تتوه فى الرشوة ، ويختلط الحق بينهما ، ونَدَرَ فى الناس مَن يفرق بين هذه وتلك .

و بلقيس اليمنية ، ملكة سبأ ، وهى مجاورة لنجران ، ظنت أنها بهداياها ستشترى ذمة النبى سليمان ، ففهم مغزاها ، وقال : أتمدوننى بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون .

وقد قبل محمد ، هدايا المقوقس عظيم القبط بمصر ، وهدايا قسيس نجران ، فقبول الهدية ، تكريم للمهدى ، و إيناس له ، وقبول لوداده ، ورفع للتكليف بين المتهادين ، وطمأنة للوافد ، ومفاتيح للقلوب المغلقة ، ومسح لصدأ الجفوة .

ثم عرض محمد عليهم الإسلام والتوحيد ، وحدَّثهم أن إنجيل عيسى ، ينادى بأنْ لا إله إلا الله ، ولا ولد لله ، وأنه لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فلا عزير ابنه ، ولا المسيح ابنه .

* * *

فها هو ذا محمد ، قد اقتحم عليهم ميدانهم ، فتكلم فى عيسى نبيهم قبل أن يكلموه ، وفتح لهم باب الحديث فى عيسى ، وجرهم إلى الجدال والمحاورة .

فسألوه : وما ذا ترى فى عيسى نبينا ، وما حكمك عليه . وما رأى دينك فيه ؟

فأنزل الله عليه من القرآن : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن . فيكون . الحقُّ من ربك فلا تكونن من الممترين .

فسألوه : أليس عيسى من روح الله ؟ فيكون بذلك ابن الله ، ويكون الله أباه ؟

وحاجُّوه ، وحاوروه ، وداوروه ، وأكثروا جداله ، وأصروا أن عيسى ابن الله .

وأفرغ جهده فى إقناعهم ، وطرق أسماعهم ، ودحض افترائهم ، فلما رأى منهم ، انغلاق صدورهم ، وجمود قرائحهم وتنطعهم فى مكابرتهم ، لجأ إلى الله ليحكم بينه وبينهم ، فالله ذاته موضع الخلاف بين حقه وضلالهم .

فمن يفصل بين الحق والضلال إلا الله ؟

* * *

تعالوا يا نصارى نجران ، ندعو أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، نجتمع فى ميدان ، ونضرع إلى الله بِنفَس طاهر ، وقلب مخلص ، نسأله ونبتهل إليه ، أن يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وأن ينزل لعنته ، ويطرد من رحمته ، مَنْ كان منا أو منكم ، كاذباً مفترياً ، ضالا مضلِّلا .

فإن كان دينكم الحق ، ودينا الباطل ، لعننا الله ، وخسف بنا ، ومسخنا قردة وخنازير .

وإن كان ديننا الحق ، ودينكم الباطل ، لعنكم الله ، وخسف بكم ، ومسخكم قردة وخنازير .

* * *

إذن هى المباهلة والملاعنة ، والابتهال إلى الله ، أن ينزل غضبه ولعنته على من يكذب على الله .

وإذن هى مجابهة الله ، ليفصل بين أنبيائه !

وإذن فهو الموت أو الحياة !

* * *

وبُهت نصارى نجران ، وأسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم بين مِطرقة الإيمان ، وسندان الشرك والكفران ، وأن المطرقة بيد الله ، وليست فى يد محمد ، ولا فى يد عيسى .

* * *

فاستمهلوا محمداً إلى غده ، حتى يُديروا الرأى ، ويفصلوا فى الأمر ، فإما شجاعة وجراءة ، وصراحة فى الحق ، وإما الْتياث وانغماس فى أوحال الباطل !

نور وظلام ، وإيمانٌ وكفران ، وجنة ونار ، وتصديق وتكذيب لما قرأنا فى الإنجيل ، قول المسيح : ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، وهذا هو أحمد محمد ، يدعونا وينذرنا ، ويتوعدنا غضب الله .

* * *

وعاد النصارى يقولون : لا نستطيع يا محمد مجابهة الله ، فأعْفنا ، واعفُ عنا ولك علينا الجزية ، ندفعها خاضعين ، ألفىْ حلة حمراء ، وثلاثين درعاً من حديد . ونعيش إلى جوارك ، وفى ذمتك ، نرعى لك حقك ، وتُبقى علينا ديننا ، حتى تستنير بصائرنا ، ويكشف الله عن أبصارها ، ويهدينا سواء السبيل .

ويقول النبى محمد :

والذى نفسى بيده ، لو تباهلوا ، لَمُسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على الشجر .